ثانيا– من عوامل ازدهار الخطابة في العصر الإسلامي

1–دور القرآن في ازدهار الخطابة : وقد استفادت الخطابة من القرآن الكريم في ناحيتين: **الأولي** : ما اكتسبته اللغة من القرآن الكريم. **وثانيهما** : أن الخطباء قد أخذوا ينهجون نهج القرآن الكريم في الاستدلال إذ وجدوا فيه أبلغ طرق الإقناع الخطابي، فقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم ما لا يمكن أن يجتمع في أدلة سواها، وجد الخطباء في القرآن الكريم ذلك، فوجدوا فيه معلما لطرق الإقناع والاستدلال لا يقاضيهم أجرا، فتأثروا بطريقته واقتبسوا من عباراته، وشاع بينهم الاقتباس منه، حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شيء من القرآن الكريم

2–دور الدعوة في ازدهار الخطابة فالخطابة لها دورها البنّاء في نشر الدين الجديد وهي احدي الفنون الأدبية الّتي ساهمت بصورة مباشرة وفعّالة في تثبيت الإسلام و إحكام بنيانه ونشره فى الجزيرة العربية ومن ثم بثه في أرجاء المعمورة ولولا وجود الخطباء الاكفياء لما انتشر الإسلام هذا الانتشار الواسع ولما ا حتلّ هذه المكانة المرموقة في صدور الناس وعقولهم ، نعم ، وجود خطباء كفء في مقدمتهم من أُنزل عليه كلام الله الذي هدى به البشريّة من الظلمات الى النور وهو الرسول ﷺ

3– بيان الأحكام الشرعية : يحتاج الناس إلى تعليم دينهم ومعرفته، ودراسة الأحكام الشرعية التي تنظم أمورهم في نواحيها المتعددة، وكانت الخطبة خير وسيلة لذلك.

4– تشريع الشورى : جاء الإسلام للمحافظة على كرامة الإنسان وإعلاء شأنه، لتصح خلافته على الأرض، وكانت الشورى وسيلة من وسائل البناء الصحيح للأمة وقد جعلها القرآن سمة من سمات المؤمنين، قال تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾، وكان الرسول ﷺ يستشير أصحابه في الأمور الهامة مثل غزوة بدر حيث يسمع مشورة المهاجرين والأنصار.

والخطابة هنا، هي الوسيلة العظمي للتعبير عما في النفوس، فخطب الحباب بن المنذر وأبو بكر الصديق ثم سعد بن معاذ.

5– الجهاد : شرع الإسلام الجهاد: لإعلاء رايته، وتبليغ دعوته، وذلك يحتاج إلى خطابة تشحذ الهمم، وتحفز النفوس إلى طلب الشهادة، كما يحتاج إلى قائد يحسن الكلام، ويجيد الإلقاء، ليبعث في نفوس جنوده القدرة على الصمود والنزال، ولن يستطيع ذلك إلا بواسطة الخطبة، فالجهاد في سبيل الله فتح للخطابة بابا واسعا.

6– ولاية الأمر : جعل الإسلام للخلافة والإمارة منزلة عظيمة يختار لها من توفرت فيه شروط عديدة فيتقدم –بعد اختياره– بخطبة جامعة يبين للناس فيها سياسته، ويطلعهم على نهجه، ثم يقودهم –بعد ذلك– في الأعياد والمواسم، ويخطبهم في الجمعة وفي كل ذلك إحياء للخطبة.

7- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : يربط الله خيرية الأمة بقيامها بهذه الفريضة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله﴾ (آل عمران:110).روي تَمِيمٌ الدَّارِيُّ أَنَّ النَّبِيَّﷺقَالَ «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ «لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».وقد قام المسلمون بهذا الأمر خير قيام، فأرشدوا الخلفاء، وقاموا فيهم بالنصيحة، ومن المسلم به أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحتاج إلى داع ماهر يجيد الكلام، ويحسن الخطابة، ليتوصل إلى إقناع المخاطبين. وللحق نقول: إن الحرية التي منحها الإسلام لأبنائه، كانت من أقوي الدواعي لازدهار الخطابة.

8- الفتن الداخلية : ولقد بدأت هذه المحاولات بظهور المتنبئين ودعوتهم إلى الردة، فأرسل مسيلمة الكذاب إلى النبي ﷺ رسالة يقول له فيها: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أنت نبي، وأنا نبي فلك نصف الأرض ولي نصفها الآخر ولكن قريشا تجور وتظلم». فرد عليه النبي ﷺ قائلا: «من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، السلام علي من اتبع الهدي..... وبعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»

وبعد موت النبي ﷺ، ظهرت حركات الردة في الجزيرة العربية، فقام أبو بكر ﷺ يقاتلهم ودعا المسلمين إلى بذل الجهد في سبيل الله.

ثم كانت الفتنة في عهد عثمان ﷺ، ثم الحروب التي وقعت بعد ذلك في صفين، حيث انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم مع عليّ ﷺ وقسم مع معاوية ﷺ، وقسم أمسك عن الخوض فيها، وكل قسم له أنصاره وخطباؤه، وقد أدي ذلك إلى ازدهار الخطابة.

ثالثا-أنواع الخطابة الإسلامية: هناك ضروب من الخطب قضي عليها في صدر الإسلام، مثل سجع الكهان لاتصاله بالوثنية، ونهي النبي ﷺ عنه ,كذلك اختفت خطب المفاخرات التي كانت في الجاهلية وأصبحت موزونة بميزان الإسلام، مثل المفاخرة التي جرت في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول ﷺ، وبقي من أنواع الخطب في هذا العصر الخطب التي تُلقى في كثير من المحافل الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة والأدبية وغيرها وقد تعددت أنواع الخطابة ومواضيعها في العصر الإسلامي ، فأصبحت تتماشى ومقتضيات الحال فمنها خطب دينيّة وخطب سياسيّة، وجهاديّة، والعسكرية، والقضائيّة، خطب النكاح. خطب المناظرات. الوصايا- والتأبينيّة وغيرها ولكن نحن لسنا بصدد التعريف بها كلها، بل سنتحدث عن أهم أنواع الخطابة التي لعبت دوراً مميزاً وهامّاً في توسيع ونشر الدين الجديد الإسلامي مع ذكر نماذج من فحول الخطباء الإسلاميين على رأسهم الرسول ﷺ .

1-الخطابة الدينيّة أو الوعظية: عرفت الخطبة الدينية «وهي الّتي تُلقى لوعظ النّاس وإرشادهم وتبصيرهم في شؤون دينهم وتوضيح عقائدهم وحثّهم على المعروف ونهيهم عن المنكر».[26] فغاية الخطب الدينيّة هي إرشاد الناس إلي تقوى الله وكسب رضاه ونيل سعادة الدّنيا والآخرة.

أ-نماذج من الخطب الدينية نأتي بنموذج مقتطف من خطب سيد الخطباء الرسول ﷺ:بُعث الرسولُ ﷺ في الأمة العربية بمعجزة لم يأتِ بها نبيٌّ أو يُبعث بها رسول، ألا وهي كتاب يتلى وبيان يقرأ ، فاق كلام البشر وقدرة الخلق وبلاغة الإنس والجن إلى يوم القيامة

وصدق الله عز وجل إذ قال: « قل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[27] وكان رسول الله أفصحُ النّاسِ وأبلغُهم وأخطبُهم ، وخطبُه محفوظة ومدوّنة.قال رسول الله ﷺ بعد حمد الله ثنائه :« أيها الناس إن لكم معالِم، فانتهوا إلي مَعالمكم و إن لكم نهايةً فانتهوا إلي نهايتكم فانّ العبد بين مخافتين أجَل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه و أجل باقٍ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه. فَليأخُذ العبد من نفسِهِ لِنَفسِهِ و من دنياه لِآخرتِهِ و من الشبيبة قبل الكبر و من الحياة قبل الممات. فوالذى نفسُ محمدٍ بيدهِ. ما بعد الموت مِن مُستَعتَب و لا بعد الدنيا من دابرٍ الاّ الجنة أو النار.»[28]

ب–خصائص خطب النبي ﷺ: إنَّ خطب الرسول كثيراً ماتكون قصيرة العبارات كثيرة المعاني، وفيها حثٌّ للأعمال الصالحة ونهيٌّ من ارتكاب الباطل ، فيها تبشير وفيها وعيد، تبشير بالجنة ووعيد بجهنّم.وهي من حيث الإلقاء تكون ارتجاليّة ، تُبد أبالبسملة وحمد وثناء الباري تبارك وتعالى ، لأنَّ الخطبة التي لا تفتتح بالحمد لله تسمى« بتراء »والخطبة التي تخلو من الشهادة بعد الحمد لله ، تّسمّى «جذماء» ومما يؤكد ذكر الشهادة في خطبة الجمعة. قال رسول الله : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء » والجذماء هي المقطوعة.ومن خصائص خطب النبىّ ﷺ أنّها تُفتتح بـ«ا لحمد لله ونستعين بالله، نؤمن به ونتوكل عليه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شَرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ومَن يهدِه الله فلا مُضلّ له ومن يُضلل فلا هادي له واشهد ألّا إله إلا الله وحدَه لا شريک له.وبعضٌ منها تفتتح بهكذا عبارات:أُوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثّكم على طاعته، أو بذكر «الله أكبر».[29]وتُختتم بالدعاء.

وقد كانت خطبته في حجة الوداع خلاصةً عامةً، جامعةً شاملةً لمهام الدين، وأسسِ التعامل، منها: «أي يوم هذا؟ في أي شهر هذا؟ في أي بلد هذا»، وفي كلها يجيبون بأنها "أوقات وأماكن محرمة"، فيقول ﷺ «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذه»[30] انظر إلى قوة التأكيد في التحريم، ثم يوصي بالنساء خيرًا، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه من البيان والبلاغ في أعظم جمعٍ للمسلمين.

2– الخطابة السياسيّة:«هي الخطب الّتي تُلقى في شئون الدولة وسياستها ولإظهار بعض الإمور الّتي تحتاجها أو لإطلاع الجماهير على مسلک الحكم وعلى الخطوط العريضة الّتي رسمها لنفسه وعلى النهج الّذي يريد أن ينتهجه والسبيل الّذي سيسلكه في إدارة البلاد وإنعاش أمور العباد» [31] ويقول الحاوي:«تتناول الخطب السياسية الموضوعات الّتي تتعلق بتنظيم الجماعة وإقامة الحكم فيها أكان ذلک في المجالس النيابيّة، أم في الاجتماعات الإنتخابيّة، فضلاً عن الندوات العامة والمحافل الدوليّة».[32]

3–الخطب العسكريةّ والجهاديّة:«هِي الخطب الّتي يلقيها القادة –عادةً–إلى الجند والعساكر وأغراضها معروفة، من تثبيت للإقدام وبعث العزيمة في النفوس وإذكاءُ لحماسة الجند والدفع بهم إلى القتال بثقةٍ بالنفس وصلابةٍ وقوّة».[33]فكان لها الحظ الأوفى في قتال الأعداء؛ كما روي ابن إسحاق في غزوة بدرٍ: خرج رسول الله ﷺفحرَّضهم على القتال، وقال: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر؛ إلاَّ أدخله الله الجنة»، فكان لكلماته – ﷺ أقوى تأثير على نفوسهم، جعل أحد المقاتلين – عمير بن الحمام – يستعجل الموت، ويستطيل الحياة، فيقول: «بخ، بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلاَّ أن يقتلني هؤلاء،

وكان بيده تمرات يأكلهن، فقذف بهن وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل»[35]، وبهذه الروح اندفع المؤمنون إلى قتال العدو ونصرهم الله تعالى، وهكذا كان في عهد الخلفاء والفتوحات الإسلامية، كانت الخطابة تسبق القتال، وكذلك في السلم؛ فقد عُنِي بها كل العناية حتى أصبحت جزءًا من العبادة، فنصبت لها المنابر في المساجد، وجعلت في مقدمة الجُمَع والأعياد، واختص بها أفاضل الناس وأئمتهم في مهام الأمور، للأمر والنهي، والتوجيه والبيان.

ومن الخطب العسكرية ناتى بخطبة طارق بن زياد ذلک القائد العربى الذى فتح بلاد الأندلس حيث قال فيها:

«أيها الناس أين المفَرُّ، البحرُ من ورائكم و العدّو أمامكم و ليس لكم والله إلا الصِّدقَ والصبر واعلموا أنكم فى هذهِ الجزيرة أضيعُ من الأيتام فى مآدب اللّئام و قد استقبلكم عدّوكم بجيشه و أسلحتُه و أقواته مُوفُورةٌ وانتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم و لا أقوات إلا ما تستخلصُون من أيدي عُدوُّكم إن امتَّدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تستنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم ، وتعوّضت القلوب من رُغَبها منكم الجُرأَةَ عليكم، فادفعوا عِن أنفسكم خِذلانَ هذهِ العاقبه من أمركم بِمُناجَزَة هذِهِ الطّاغَية.... و اعلموا أنّى أول مُجيب إلي ما دعوتكم إليه. وإني عند مُلتقى الجَمعين، حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاءَ الله فاحملوا معي فان هلكتُ بعده فقد كُفيتم أمرَه و لن يُعوزكم بَطَلٌ عاقل تُسندون أموركم إليه و ان هلكت قبل وصولي إليه. فاخلفوني فى عزيمتِي هذهِ و احملوا بأنفسكم عليه و اكتفوا المهِمَّ فى فتح هذِهِ الجزيرة بقتله فإنهم بعده يُخذلون.».[34]

كما نعلم أنّ طارق بن زياد ذلک البطل الذي فتح بلاد الأندلس ، وكان خطيباً مصعقاً مقداماً يعشق المجد وتصبو نفسه إلي الفتوحات، ولم تهز عزيمته في فتح اسبانيا جيوش رودريک ملک الأسبان، ولم يتراجع بل أحرق أسطوله البحري ليقطع أمل النجاة فلا نجاة اليوم إمّا النصر وإمّا الموت، فخطب خطبه الشهيرة الّتي ورد ذكرها.

ثالثا:أنواع الخطب عند علماء الخطابة في العصر الحديث:لقد عمَد العلماء المحْدَثون[1] إلى تقسيم الخطابة باعتبار الموضوع الذي تتضمنه،ويعرضه الخطيب،فذكروا الأنواع الآتية:1- الخطب السياسية.2- الخطب القضائية.3- الخطب المحفلية.4- الخطب العسكرية أو الحربية.5- الخطب الدينية.6- الخطب الاجتماعية. كما أنه يمكن لكل نوع أن يَدخل تحته أنواعٌ أو فروعٌ أخرى، وهكذا لا تنتهي عند هذا التقسيم.

ملاحظة ضرورية على تقسيم الخطابة: يلاحظ على التقسيم الحديث للخطابة أنها جعلت الدين قِسْمًا من الأقسام، منفصلًا عن بقية الأقسام، كأنه لا شأن له بها ،ويظهر أن هذا التقسيم يرِدُ من منطلق الفصل بين الدين وسائر شؤون الحياة، وهو ما يروج له أعداء الإسلام، وللأسف تأثر به بعض المسلمين، وهذا غير مقبول البتة بالنسبة للإسلام؛ لأنه ليس دينًا روحيًا محضًا، مقصورًا على العلاقة بين الفرد وربه فقط،بل إنه يتسم بالشمول لجميع مناحي الحياة وشؤونها من اقتصاد وسياسة وقضاء واجتماع، إلى الجوانب الروحية.

[1] راجع فن الخطابة للدكتور /أحمد الحوفي. ص59 - 61 ، الخطابة للشيخ أبي زهرة. ص 153، فن الخطابة للشيخ علي محفوظ. ص699.

ونحن لا نرفض أن تقسّم الخطابة إلى أقسام على نحو ما سلف، ولكن بشرط أن لا تكون بمعزل عن دين الإسلام،بل تنبنِي عليه وتلتزم به شكلًا ومضمونًا، مظهرًا وجوهرًا، وعلى هذا الأساس يمكن أن تكون أنواع الخطب على النحو التالي:

1–الخطبة السياسية: وهي الخطب التي يلقيها القائد السياسي سواء كان ملكاً، أو رئيساً، أو وزيراً، أو ضابطاً، وتلقى في المناسبات والأعياد الوطنية، والمؤتمرات والندوات السياسية المحلية أو العالمية.

2–الخطبة القضائية: هي الخطب التي تلقى في مجالس القضاء، أو في ساحات المحاكم والمرافعات أمام القضاء، وغالبًا ما يلقيها رجال النيابة والمحامون، وهذا النوع من الخطابة قديم، عرفته الأمم القديمة، واستمر إلى يومنا هذا.

3–الخطبة الحربية، وهي الخطب التي تلقى على الجيش قبل الحرب أو أثناءها، وذلك لزرع روح الحماس والجهاد في نفوس الجيش.

4–الخطبة الاجتماعية: وهي التي تلقى في مناسبات الزواج، والتربية، والأمور العائلية، والإصلاح، والعزاء.

5–الخطبة المحفلية، وهي الخطب التي تلقى في المناسبات العامة. أو التي تلقى في المؤتمرات والندوات العلمية المتنوعة، وغير ذلك.

6–خطب الوعظ الديني، وهي الخطب التي يلقيها الأئمة والدعاة في الجمع و الأعياد الدينية، وفي نشر دعوة الإسلام.

خامسا– أهم خصائص الخطب في هذا العصر الاسلامي :

1- الطول : وهذا من أهم ما تمتاز به الخطبة العربية عموما بعد الإسلام، حيث مست الحاجة إلى الإطناب عرضا وبيانا لجوانب الدعوة التي يقوم بها الخطيب، وقد يحتاج إلى ترديد الحجج والإكثار من البراهين، والإسهاب في شرح الأفكار.

2- الحرص على تقسيم الخطبة:يبدأ بالمقدمة التي تشمل الحمد والثناء على الله ثم الدخول إلى الموضوع وعرضه عرضا واضحا، ثم الخاتمة

3- الحرص على إتباع الترتيب المنطقي السليم في عرض الموضوع.

4- الاقتباس من القرآن والسنة، وأحاديث الحكماء، والأمثال السائرة:

والخطبة التي لا يكون فيها قرآن شوهاء، وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع أثر من القرآن الكريم، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار.

5- اختفاء السجع : إلا إذا جاء عفوا وبغير قصد، لنهي النبي ^ عنه.

6- قوة الأفكار : حيث صارت الخطبة أداة التعبير في المجتمع الإسلامي الجديد.

ولك أن تستنتج أسباب رقي الخطابة: وعنها يقول شيخ الأزهر الخضر حسين- رحمه الله- : «إذا اعتبرنا بأطوار الخطابة عند العرب، نجد الخطابة أخذت ترتقي في ثلاثة أطوار: في أواخر عهد الجاهلية، وفي صدر الإسلام، وفي صدر نهضتنا الحاضرة».

نأخذ من الحالة الأولي أن من أسباب رقي الخطابة – بعد فصاحة اللغة- حياة الأمة في بيئة حرة، وشعورها بأنها ذات سؤدد وفخار، وكثرة ترددها على حروب تدافع فيها عن أعراضها ونفوسها وأموالها.

– ونأخذ من الحالة الثانية أن من أسباب رقي الخطابة، اعتناق الأمة دينا تحملها الغيرة والعاطفة على أن تبث نصائحه، وتجاهد في سبيله بما تملك من قوة.

– ونأخذ من الحالة الثالثة أن من أسباب رقي الخطابة، شعور الأمة بالحاجة إلى أن تأخذ الحالة الاجتماعية والسياسية هيأة غير هيأتها، وتسلك سيرة أقوم وأهدي من سيرتها.